بين موسيه وخالد الكاتب

للأستاذ صلاح الدين المنجد

أذكر أني قرأت منذ شهور ببغداد مقالاً ذكر فيه صاحبه أن الشاعر الفرنسي «موسّيه» كان يُشابه خالداً الكاتب في بكائه وألمه وهواه، وأن من الحق أن يسمّى خالد «موسّيه الشرق»!

وقول كهذا القول يطوي في ثناياه من التسرّع في الحكم والجهل في المقايسة النصيب الكبير؛ فليس من الصحيح إقامة الموازنات بصلة هزيلة أو نسبة ضعيفة، وليس من العلم إطلاق الألقاب بدون حذر أو أناة

لقد أحبّ «موسّيه» وأحبّ «خالد»، وبكى موسّيه وبكى خالد؛ فكانا في الحب مختلفين، وفي البكاء متباينين. أما الأول فقد بكى وتألم حتى سمي شاعر الألم. وكان الدافعَ إلى ذلك حبٌّ مفجّع وقلبٌ محطّم. وكان شابًّا ناعماً يفوق لداته بالرشاقة والأناقة والنبوغ. فلما أحبّ «جورج صاند» غرّد بحبها في أشعاره وملأ به أناشيده وأغانيه. ثم حملها إلى إيطالية بلد الجمال والفن ليقضيا حياة حلوة كالعسل، رقّافة كالنسيم، ويتمتعا بالجمال البارع والحب الوليد. على أنها تركته بعد قليل وتبعت «باجيلّو» الطبيب الإيطالي. وكأنها كانت كالفراشة النشوى يروقها رشف الرحيق من كل زهرة! فثار موسيه لما رأى إعراضها وهمّ أن يقتل الحبيبة والطبيب معاً، ولكنه فضل البكاء على الجريمة، ورحل عن «فينيسيا» باليأس والخيبة؛ فهام في رباع أوربة ثم عاد إلى فرانسة وأخرج للناس آيات رائعات، غنى فيها بأشعار رقاق من السهل الممتنع، آلامه المبرحات وحبه الجريح، ويأسه الداجي، وإخفاقه المر. والحق أن موسيه كان بارعاً في تصوير ذلك، لأنه كان صادقاً، والصدق يؤثر في القلب الشاعر ويطربه؛ ولأن آلامه ويأسه وإخفاقه عواطف، تجدها قد لامست كل قلب، وأقرحت كل كبد، ولذلك يشعر المرء أن في أشعار موسيه ترجاناً لما يختلج في حنايا ضلوعه. ولقد كان شاعرنا إذا وصف ألمه وذكر الرابع التي رآها والأحوال التي صادفها واليأس الذي لقيه برع وأجاد. ولقد سما في وصفه لحبيبته (في ليلة تشرين) ففي هذه القصيدة تجد صورة آخاذة للحبيبة الشهوانة ذات العينين السوداوين. العطشى للحب، الظمأى للقبل، التي لا تفي لحبيب ولا تقنع بحبيب. ولعل هذا آت عن فرة حسها وفرط شاعريتها وسعيها وراء لذتها التي خلقت لها وأغوت الناس بها

على أن موسيه قد اتخذ من بكائه وألمه وسيلة للتعليم كما أرى، فجاء طرف من شعره تعليمياً Didactique أبان فيه عن ضرورة الألم وأثره في النفس، ومحاسنه التي لا تنفد ومزاياه التي تهذب الروح وترهف الحس. يقول: «إن الرجل صانع والألم معلمه. والمرء لا يعرف نفسه إلا إذا تألم؛ ولا شيء كالألم يجعلنا عظماء ذوي شأن». ثم يدعو إلى الألم ويبرع في الدعاوة له وتزيينه للناس. ويقولون إن أهل عصره كانوا يسيغون أشباه هذه الأقوال، ويعجبون بمن يذرف الدمع ويصعد الحسرات، وينظرون إلى الذين يقاسون آلام الحب وأسقام القلب نظرة إعجاب؛ بل كانوا يشتهون ذلك. فمن عانى الهيام والتحنان والسهر؛ والإبكاء وما يدعو إليه الهوى فقد امتاز عن غيره بكثير

ولقد كان فلاسفة يونان الأقدمين ينصحون الفتى إذا سألهم النصح «أن اعرف نفسك بنفسك» وكانوا يحسبون أن السعادة الكبرى في هذه الحروف الثلاثة. ثم تساءلوا: كيف يعرف المرء نفسه؟ فركب كلٌّ مركباً؛ أما موسّيه فقال «ينبغي لك أن تتألم كي تدرك ما تريد، لأن المرء يعرف نفسه إذا تألم» وهو في كلامه هذا ينطق عن تجربة، ويعتقد أنه عرف نفسه وعبقريتها، لما أدمى الحب قلبه فتألم. وعندئذ علا صوت قلبه الشجي. وصوت القلب كما يقول يصل وحده إلى القلب، فهو يود أن يدع قلبه يتكلم دائماً في كل حال. لأن على الشاعر أن يصغي إلى قلبه ويدع عقله، وأن يبتغي رضا القلب قبل مرضات الناس. والحب إذا فجّر الألم من القلب جعله غلاباً للمصاعب، عزاماً في المصائب، لأن الألم رمز القوة وهو سبيل الخلود. والخير الفرد الذي يبقى لنا

فى الدنيا هو تذرافنا الدمع فى بعض الأحايين

أفيكون حال خالد كحال موسّيه ؟

لا جرم أن ما نعلمه من حياة موسيه أوفر مما نعلمه عن حياة خالد . لا شك أن كلا أحب وكلا بكى ، ولكن شتان ما بين الباكيين . ولقد ذكروا أن خالداً كان كاتباً فى الجيش ، وأنه كان يهوى جارية لبعض الوجوه ببغداد فلم يقدر عليها ، وأن محمد بن عبد الملك ولاه الإعطاء فى الثغور ، فخرج إليها ، فسمع فى طريقه منشداً ينشد ومغنية تغنى :

من كان ذا شجن بالشام يطلبه
ففى سوى الشام أمسى الأهل والشجن

فبكى حتى سقط على وجهه مغشياً عليه ؛ ثم أفاق مختلطاً واتصل ووسوس . أفيكون سبب بكائه وحبه هواه لهذه الجارية أم هناك سبب آخر ؟ يقول صاحب الأغانى إن خالداً كان مغرماً بالمرد ينفق عليهم كل ما يفيد ، وأنه هوى غلاماً يقال له عبد الله كان أبو تمام يهواه ، فتهاجيا بسببه وأنه وسوس على أثر ذلك

وهنا نتساءل : « هل اتخذ خالد من بكائه وألمه ما اتخذه موسّيه ؟ »

لا جرم أن خالداً لم يذهب مذهب موسّيه فى بكائه وألمه ، ولم يفطن للألم وأثره فى النفس ، ولم يبرع فى تصوير الألم براعة موسّيه ، ولم تكن فى شعره تلك الصفة الإنسانية التى تجدها عند موسيه . فقد تجد بعض التكلف فى العواطف والغلو فى المعانى لديه ؛ على أنه تفنن فى وصف الدمع ، وشعره فيه يعذب ويرق . ولا شك أنه الشاعر الفرد الذى بلغ فى وصف الدمع ما لم يبلغه أحد من شعرائنا ، وهذا ما يمتاز به من موسيه

ويحدثنا خالد فى ديوانه أنه أصبح دنفاً هائماً بمن صارمه واحتجب عنه ، فبكى ؛ وجعل الدمع مداداً يكتب به على خدّه ما فى فؤاده !

ثم طلب من الحبيب أن يفهم معانى دمعه . فلما أعرض عنه هواه وفقد الراحة ، لجّ فى تذراف الدمع حتى تقرحت عيناه وطلبتا العذر منه ، فلم يعذرهما لأن قلبه لا يعذره ولا يشفق عليه

ولقد كان إذا مرض فلّه عائدوه ونأى عنه طبيبه ، دعا الدموع فهى مطيعة له ، تسرع إليه وتجيبه . وهو ينصح لمن كان هذا شأنه أن يفعل ما فعله . وإذا أنكر الحبيب حبه ودنفه فهو يتخذ الدمع شفيعاً شهيداً . وما زال يبكى حتى كاد يعشب خده :

ولو أن خداً كان من فيض عبرة
يُرى معشباً لاخضرّ خدّى فأعشبا

كأن ربيع الزهر بين مدامعى   بما أخضل فيه من ضنى وتصببا
على أننى لم أبك إلا مودعاً   بقية نفس ودّعتنى لتذهبا

وما زال هكذا حتى تخاصمت عينه وقلبه :

القلبُ يحسد عينى لذة النظر   والعينُ تحسد قلبى لذة الفكر
يقول قلبى لعينى كلما نظرتْ :   كم تنظرين ؟ رماك الله بالسهر
العين تورثه هماً فتشغله   والقلب بالدمع ينهاها عن النظر
هذان خصمان لا أرضى بحكمهما   فاحكم فديتك بين العين والبصر

فإذا نفد دمعه نادى :

نفدتْ عبرتى فهل   عبرةٌ أستعيرها ؟

* * *

فأنت ترى من هذه اللمحة الموجزة أن الشاعرين مختلفان فى حبهما وألمهما وبكائهما ، وأن لكل مزايا . ولعلّى أعود إلى خالد فأوسّع الكلام عنه

(دمشق) صلاح الدين المنجد

إدارة البلديات — مياه

تقبل العطاءات بإدارة البلديات (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر ١٣ يناير سنة ١٩٤٢ عن توريد عدادات وأدوات مياه لمجلس تلا المحلى وتطلب الشروط من الإدارة نظير ٢٠٠ مليم

٨٨٧٣

حكم فى القضية ٥٧٨ سنة ١٩٤١ عسكرية بنى سويف بتغريم جبر عوض محمد جزار من منشاة الحاج ثلثمائة قرش لأنه باع لحما بثمن أزيد من التسعيرة